

ابن خلدون و علم الاجتماع اللغوي

د . سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2

الملخص :

هذا المقال يعطي لمحة عن علم الاجتماع اللغوي عند ابن خلدون ، محاولا الربط بين الفكر اللغوي الخلدوني ونظريات البحث اللغوي الحديث، ليكون إسهاما متواضعا أمام المجهود الهائل الذي خلفه ابن خلدون في مجال نشأة علم الاجتماع اللغوي ، و العناية الدقيقة باللغة من أجل بعثها كعنصر فاعل في العمران البشري. القارئ للفصول الأخيرة من المقدمة يتبين له أن هذا العلم قد تطرق إليه ابن خلدون منذ زمن بعيد حيث يركز ابن خلدون على الجانب الاجتماعي كثيرا ، فالمقال محاولة للفت النظر إلى البدايات الأولى لعلم الاجتماع اللغوي.

Résumé

Cet article présente un aperçu de la sociolinguistique chez Ibn Khaldoun, et ce en tentant d'établir un lien entre la pensée linguistique khaldounienne et les théories de recherche linguistique modernes. Cette contribution ne saurait être que modeste devant le travail colossal qu'a accompli Ibn Khaldoun pour jeter les jalons de la sociolinguistique en tant que science, afin d'apporter le plus grand soin de la langue comme élément majeur de l'édifice des connaissances humaines. Le lecteur des derniers chapitres de la Mouqqadimane manque pas de remarquer

que cette science avait fait l'objet d'une réflexion de la part d'Ibn Khaldoun bien avant qu'elle ne soit considérée en tant que tel, et il est à noter que ce dernier met d'avantage l'accent sur l'aspect sociologique. Cet article voudrait attirer l'attention sur les débuts de la sociolinguistique.

توطئة :

جمع ابن خلدون في شخصه ما وصل إليه العلم العربي في المشرق و المغرب قبله ثم هضمه و عرضه وافيا، حسب استعداده و ميوله .. و كانت نظريته العلمية للتطور الحضاري، و اكتشافه لعلم العمران البشري أو ما يعرف بعلم الاجتماع يؤكد نباهة الرجل و إدراكه أن العلوم أساس بناء الحضارة .. و نالت العلوم اللسانية و إعادة الاعتبار لتداول اللغة العربية حيزا كبيرا من اهتمامه باعتبارها الوسيلة الأساسية لانتقال العلوم. لقد ظهر ذلك جليا في الفصول الأخيرة من مقدمته ، مما يبين أن علم الاجتماع اللغوي ليس وليد العصر الحديث .

المقدمة و نشأة علم الاجتماع العام : كان ابن خلدون واعيا إلى حد كبير بما تجمع لديه من معارف، يقول : " فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمته من العلوم العربية " ¹ و يقول في موضع آخر : " و سلكت في ترتيبه و تبويبه مسلكا غريبا، و اخترعته من بين المناحي منهجا عجيبا، و طريقة مبتدعة و أسلوبا " ² .. فابن خلدون جاء بمفاهيم جديدة ، و هذه الأخيرة تتطلب أسلوبا و شكلا جديدين، فهذا أهم شعار في المقدمة .. و جملة القول أن ابن خلدون قد أحدث ثورة في ميدان المعرفة، و ذلك على جميع الجبهات، و أن أصلية علمه الجديد هامة للغاية، لذا فإنه لم يفته أن يعين مكان هذا العالم بالنسبة إلى المواد الأخرى التي تمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة و يصرح في مقدمته بأن ما أتى به " علم مستقل بنفسه " ، و لكن الدارس لهذا العلم يجد نفسه أمام ظواهر اجتماعية إنسانية كثيرة، يتطلب إخضاعها للمنهج التجريبي، بعيدا عن التخمين و إصدار الأحكام دون تجريب.

إذن يمكن القول أن " المقدمة تضمنت علما جديدا مستقلا بنفسه، هو علم العمران أو ما أطلق عليه أكثر الباحثين (علم الاجتماع)، و الحق أن علم العمران الخلدوني أوسع دائرة من علم الاجتماع المصطلح عليه اليوم، و إن كان ابن خلدون قد استخدم كلمة الاجتماع و هو يتحدث عن موضوع علمه هذا

فقال : "وكان هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع و هو العمران البشري و الاجتماع الإنساني " ³. و من خلال تتبع أقوال العلماء من المحققين العرب و الغربيين على حد سواء فإنه يتأكد لدينا أن ابن خلدون ابتكر علما جديدا هو علم الاجتماع .. و الحق أن (أوغست كونت) لم يبتكر إلا اللفظ الذي ينكره عليه اللغويون المبالغون في الدقة (socius logos) ⁴ و إنما كان ابن خلدون سباقا إلى ذلك و في هذا الصدد يقول: " اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، عزيز الفائدة أعثر عليه البحث، و أدى إليه الغوص " ⁵ و يقول: " وكأنه علم مستنبط النشأة و لعمرى لم أقف لأحد في منحاه لأحد من الخليفة " ⁶.

و يضيف: " و نحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما " ⁷. و غير ذلك من النصوص التي تؤكد حداثة هذا العلم.

علم الاجتماع و عوامل ظهوره عند ابن خلدون:

مما سبق نتبين أن علم العمران البشري الذي توصل إليه ابن خلدون علم يدرس التجمعات البشرية و ما ينتج عنها و ما يرافقها من مظاهر اجتماعية و سياسية و اقتصادية و ثقافية، و بعبارة أخرى يمكننا أن نسمي ما وصل إليه ابن خلدون " علم دراسة التجمعات البشرية و الظواهر الاجتماعية " ⁸، و الدارس للمقدمة يتبين له أن ابن خلدون تناول في فصول مقدمته بعض المباحث التي تدرس في كليات الحقوق و العلوم السياسية و الاقتصاد .. فقد حاول أن يؤسس نظريات عديدة في السياسة و الاجتماع و الاقتصاد و التاريخ و اللسانيات .. و قد حاول أن يقيم الأدلة و البراهين عليها، و ينتقي هذه الأخيرة من الواقع حيناً و من مؤلفات سابقه حيناً آخر، و من النصوص الشرعية حيناً ثالثاً .. و يمكن أن تلخص علم الاجتماع الخلدوني في أنه حاول أن يرد الظواهر الاجتماعية إلى طبع ثابت فيها، مثلما للأجسام المادية طبع ثابت، و خصائص ثابتة، و من ثم فإنه حاول أن يكشف عن القوانين الثابتة التي تخضع لها المجتمعات في تطورها و نشأتها ⁹ ..

و هكذا نخلص إلى أن ابن خلدون يرى أنه يجب على كل من نتبع لإحدى الظواهر الاجتماعية أن يبحث عن السبب الفعال الذي أدى إلى وجود هذه الظاهرة بهذا الشكل دون غيره، لأن كل حادثة تاريخية (اجتماعية) لا بد لها من سبب ترتكز عليه في نشوئها، و لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى تحليلها و الوقوف على منبعها الأصلي و تحديد علة وجودها¹⁰. و قد قاده إلى هذا المنحى العلمي عدة عوامل نذكر بعضها باختصار فيما يأتي.

أهم العوامل التي أدت بابن خلدون إلى تحليل الظواهر الاجتماعية بما في ذلك عنصر اللغة:

أجمل في ما يلي بعض العوامل التي رأيت أنها كانت سببا في تحليل الظواهر الاجتماعية عند ابن خلدون.

- تأثره بالقرآن الكريم حيث نجد فيه تعليلا وافيا للعديد من الأحداث التاريخية و الاجتماعية.
- تأثره بالسنة النبوية.
- تأثره بأحاديث أسباب النزول.
- إلمامه بعلوم عصره.
- تأثره بشيخه الأبلي شيخ المعقول بالمغرب آنذاك¹¹.
- تأثره بمنهج الأصوليين، فمبحث العلة عندهم مشهور في باب القياس¹².
- تأثره بمنهج المحدثين¹³.
- اكتشافه لعلم العمران البشري.
- تقلبه في مناصب سياسية و إدارية و علمية متعددة.
- حياته المليئة بالرحلات.

ابن خلدون و علم الاجتماع اللغوي:

و إذا كان ابن خلدون قد وضع قواعد علم الاجتماع العام، فإنه في الحقيقة - بذلك العمل - قد مهد الطريق لاختصاصات عديدة في هذا العلم، و من الأبحاث الهامة التي تناولها، الأبحاث اللسانية، ذلك أنه يعتبر اللغة من العناصر الهامة في العصبية، كما أنها أهم مظهر من مظاهر العمران البشري.

علم الاجتماع اللغوي socio linguistics فرع من اللسانيات يختص بدراسة اللغة كظاهرة اجتماعية، إنه كما يقول (ترودجل) يدرس مجال اللغة و مجال المجتمع و الروابط الوثيقة التي تربطه بالعلوم الاجتماعية بعامة ¹⁴ ، و دراسة علاقة اللغة بالمجتمع دراسة علمية مجال حديث العهد نسبيا إذ ينتمي إلى فترة الستينات من القرن الماضي و وجد اهتماما واسعا في الغرب في هذه الفترة ، و ألفت عليه مهام محددة في الكشف عن طبيعة العلاقة بين اللغة و المجتمع ، و لكن الراسد لتطور العلوم عند العرب و ماله صلة باللغة يجد أن ثمة تراث قديم العهد في الدراسات اللهجية ، و علاقة اللغة بالثقافة ، و ظاهرة اللحن .. و هي كلها مواضيع لها علاقة بعلم الاجتماع اللغوي .

و القارئ للفصول الأخيرة من المقدمة يتبين له أن هذا العلم قد تطرق إليه ابن خلدون منذ زمن بعيد " و في العالم العربي بدأ الاهتمام بدراسة العلاقة بين اللغة و المجتمع بظهور كتاب (اللغة و المجتمع) للدكتور علي عبد الواحد وافي ، وهو من رواد علم الاجتماع بحكم التخصص الأكاديمي ، وهو لغوي أيضا بحكم دراسته بدار العلوم قبل أن يتوجه إلى جامعة السربون لدراسة علم الاجتماع " ¹⁵ و يعتبر تحقيق المقدمة للدكتور وافي من أحسن التحقيقات للمقدمة ، وربما ذلك ما دفعه إلى الكتابة في علم الاجتماع اللغوي .. إن دارس الفصول الأخيرة من المقدمة وخاصة عند الدكتور وافي يتبين له أن ابن خلدون يرمي في بحوثه إلى بيان العلاقة بين اللغة و الحياة الاجتماعية، و أثر المجتمع و حضارته و نظمه و تاريخه و تركيبه و بيئته و علومه في مختلف الظواهر اللغوية .. أي أن ابن خلدون يبحثه الرصين أدرك أن اللغة و دراستها تحتاج إلى جميع شعب العلوم الأخرى، حيث أن الحديث

عن تطور العربية و الأدوار التي اجتازتها، و حياة كل لغة، و ما يطرأ عليها من غنى و فقر، و من قوة وضعف، و سعة و ضيق، و انقسامها إلى فنون و لهجات، و ما تقوم به من صراع مع غيرها، و ما ينجم عن هذا الصراع، و التطورات التي تحدث في أصواتها و معانيها و أساليبها و قواعدها .. كل ذلك و ما إليه ترجع أهم عوامله إلى ظواهر اجتماعية، و لذا رأى ابن خلدون في دراسته للغة أن أكثر موضوعاتها لها علاقة وطيدة بعلم الاجتماع. و هكذا نخلص إلى أنه إذا كان ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع العام فإنه في الوقت ذاته أنشأ أو مهد الطريق لنشأة علم الاجتماع اللغوي أو السوسيلوجيا اللغوية، أو علم اللغة الاجتماعي، أو علم اللغة الأثنولوجي أو علم الأنثروبولوجيا اللغوية¹⁶ و الذي صار له اليوم علماؤه و مدارس و أبحاث و مناهجه.

و ابن خلدون لم يرس قواعد علم الاجتماع اللغوي بصفة نظرية فقط، بل إن لغته المستعملة قد تحولت بفضل قلمه، فصارت لا تشبه اللغة المستعملة في المؤلفات التقليدية، فابن خلدون الذي جاء بمنهجية جديدة في دراسة اللغة و تدريسها قد طبق منهجه على نفسه أولا، فقد جبل و كيف و نقى و صقل اللغة العربية ليجعلها تعبر عن الحقائق الموضوعية التي كان متأثرا بها إن ميزاته بوصفه كاتباً تستلفت الانتباه، فالنثر بسيط و دقيق، وإنه ليس نثر فنان، و لكنه نثر مفكر هادئ يملك ناصية اللغة و لا يضحى بالدقة في سبيل الوضوح، و لكنه كذلك مفكر لا يفتقر إلى مواهب الفصاحة و حدة الذكاء و ثبات اليد التي حين ترسم صورة هامة تعرف كيف تدرك ما هو أساسي و تكشف عنه¹⁷ و جملة القول أن ابن خلدون قد أحدث " علما مستقلا بذاته نظرا و تطبيقا.

نشأة علم الاجتماع اللغوي

و إذا كنت قد أخذت موضوع المقال عن هذه الفكرة، فإنه و لا شك قطرة من بحر الواجب الذي يفرضه علينا العلم بالدرجة الأولى، و انتماؤنا الحضاري بالدرجة الثانية . و إذا كان هذا الموضوع نسبة صغيرة لما تحمله قريحة هذا الرجل –

لأن المقدمة وحدها حوت من الكنوز ما أبهر الشرق والغرب على حد سواء -
فإني بذلك أحاول أن أبرز بعض جوانب فكره .. فإذا كانت نظرياته في علم
الاجتماع بفروعه السياسي والاقتصادي والتربوي .. قد لاقت العناية والبحث،
و لاقت طرقها إلى التطبيق، فإن للرجل مكانة في الأبحاث اللسانية، فقد طرق
أبواب الأبحاث و الدراسات اللغوية قبل البحث اللغوي الغربي بقرون، بل إن
أفكاره في تعليمية اللغة قد تشكل نظرية مستقلة على غرار النظريات اللغوية
الحديثة¹⁸.

إن الدارس للمقدمة يوقن بهذا القول بناء على ما يشاهده من الملاحظات و
المحاولات التي استهدفت تلك القوانين، و بيان تلك العلل و الأسباب التي تربط
بين الظواهر اللغوية الحادثة، و هذا ما يجعله لا يكتفي في كتابه العبر عامة بالسرد
و التقرير التاريخيين بل غاص في الملاحظة، و طرح الفرضيات و وازن، و حلل،
ودقق، و شرح، و ناقش، و علل، أو بعبارة أخرى استخدم المنهج العلمي في
دراسة الظواهر الاجتماعية عامة واللغوية بصفة خاصة ..

و لعل هذا المقال يعطي لمحة، و قبسا لا غير، محاولا الربط بين الفكر اللغوي
الخلدونى و نظريات البحث اللغوي الحديث، ليكون إسهاما متواضعا أمام المجهود
الهائل الذي خلفه ابن خلدون في مجال دراسة اللغة و تدريسها، و العناية الدقيقة
بها، من أجل بعثها كعنصر فاعل¹⁹ في العمران البشري. و أحاول أن ألفت النظر
إلى البدايات الأولى لعلم الاجتماع اللغوي .

و موضوع علم الاجتماع اللغوي وما يمت له بصلة معظمه في الباب السادس
من مقدمة ابن خلدون، الذي تحدث فيه عن العلوم و أصنافها، و التعليم و طرقه،
وسائر وجوهه، و ما يعرض في ذلك كله من الأحوال، و هو خاتمة الأبواب، إلا
أن القارئ قد يجد للموضوع شواهد من كامل المقدمة، فابن خلدون لا يلجأ في

تحليله للموضوع اللغوي بصورة منتظمة، باستثناء الباب الأخير من المقدمة، ففي هذا الباب قد يكون البحث سهلاً، فهو أكثر تماسكاً وإثارة للاهتمام، ففيه كرس ابن خلدون جهده لتفسير المقولات و القضايا اللغوية - التي يعتبرها أساسية- تفسيراً نظرياً وعملياً. كما أنه سعى في هذا الباب بالذات، لكشف النقاب عن المرتكزات اللغوية للحياة الاجتماعية، فهو يربط بين اللغة و الاجتماع، بين اللغة و العمران البشري، بين اللغة و الحضارة... على أن ما سبق قوله، لا يعني أن التفسير اللغوي غائب عن بقية أجزاء المقدمة، و ذلك لأن ابن خلدون يعرض أفكاره مجزأة - فيما يبدو للناظر - حسب المقامات الموضوعية، فكل ما في الأمر أنه لا يظهر فيها إلا كوسيلة تفسير متممة لبعض قضايا العمران البشري، و لهذا كان لزاماً على من يريد معرفة رأي من آرائه أن يطالعه في كامل فصول مقدمته، و ربما يبدو هذا العمل شاقاً إلا أنه ضروري في مثل هذه البحوث، لأن الأمانة العلمية و الموضوعية، تفرضان على الباحث التجرد من كل الأهواء، و الالتزام بالوصول إلى الحقيقة العلمية لا غير، و لا يتأتى ذلك للمرء إلا بالاجتهاد و المثابرة و عدم التسرع في إصدار الأحكام، و لا يتحقق ذلك إلا بالقراءة المتأنية، و الدراسة المعمقة للشكل و المضمون لكامل الكتاب، و هذا ما حاولت فعله جاهدًا في تحقيق ما يقاربه، و ما هو إلا جهد مقل، و هدي من وراء ذلك هو: "إبراز المكانة الممتازة التي يجب أن تعطى للمنهج الخلدوني، و هي التي نلمسها في طريقة الاستدلال و التي تنطلق من طرح المسائل و تتبع الأدلة التجريبية بطريقة قلما تخلو من مشاهدة محسوسة مع ربط دقيق بين الأسباب و المسببات ..، دون أن يعبأ بالاستدلالات الجدلية الصورية الكلامية الفلسفية، و إن استخدم بعضها في مواطن ليست بالقليلة. و ليس من هدف وراء ذلك إلا الوصول إلى القوانين التي تضبط الظواهر التاريخية [و الاجتماعية بصفة عامة].

اللغة حقيقة ثابتة في الفكر الاجتماعي الخلدوني:

إن ابن خلدون من منطلق نظريته الاجتماعية، توصل إلى أن اللغة أهمية بالغة في نظرية العمران البشري، لهذا أولاهها عناية كبيرة، و نظريته في الملكة اللغوية لها مفاهيم متأصلة في فكره الاجتماعي، و لا يحتاج قارئ المقدمة إلى وقت طويل حتى يدرك ذلك، فالملكة اللسانية ميزة إنسانية تختص بالجنس الإنساني من دون غيره من الكائنات، لهذا أدرك ابن خلدون أن اللغة موضوع جدير بالاهتمام العلمي، لا يحق أن يغفله كل من يدرس الاجتماع البشري، و يؤكد ذلك بقوله " ليست اللغات و ملكاتها مجانا "، فاللغة من هذا المنطلق ؛ أي ربطها بالمجتمع ، موضوع جدير بالدراسة، و التعمق فيما جاء به ابن خلدون يتيح لنا إظهار مسألة أساسية لا زالت تطرح في مجال الدراسات اللغوية و هي: هل العلاقة بين اللغة و المجتمع موضوع قابل للتحليل العلمي ؟ أم أنها درس في أحضان الفلسفة ؟.

التحليل العلمي للغة بين اللسانيات و علم الاجتماع :

مسألة التحليل العلمي للغة مازالت تثار في حقل اللسانيات الحديثة، و الدارس للمقدمة يتبين له أن قول ابن خلدون " أن اللغات ليست مجانا " له أهمية كبيرة، فاللغة في نظره موضوع قابل للتحليل العلمي، و ذلك من خلال تحليله للملكة اللسانية و وضع نظرية متكاملة فيها، فعلم اللغة أصيل في الفكر الخلدوني، و موضوع علم اللغة هو الملكة اللسانية بالذات، كما أنه تناول في مقدمته مسائل اللغة، و فصل في علوم اللسان العربي و علاقتها بالملكة، كما تطرق للارتباطات الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية و السياسية باللغة.

لا أدعي هنا أن ابن خلدون سبق الدراسات الحديثة أو أنه أحاط بمجمل النظريات اللسانية، أو أنه كان السباق في طرح هذه المسألة، فهذا موضوع يحتاج إلى استقراء علمي موضوعي، و لكن حسب أنه أدرك بحسه العلمي بعض المفاهيم و المبادئ التي لم نتوصل إليها إلا في العصر الحديث.

النظرة الاجتماعية للغة هي أساس الفكر اللغوي الخلدوني لذا نجد الوظيفة الاجتماعية من أهم الوظائف عند ابن خلدون و اللغة عنده :

- أداة للتفاهم و التعبير، و وسيلة للفهم و الإفهام، و إشباع للحاجات و المطالب:

و هذه هي الوظيفة الأولى للغة، التي يتأتى بها للفرد أن يتصل بالمجتمع الذي يعيش فيه و يتعامل معه، هذا ما يعبر عنه ابن خلدون بإفادة المقصود للسامع، و التعبير عن المعاني، " اللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة .. " ²⁰ و تحقيق الحاجات و الأغراض الذاتية، سواء كانت فكرية أو وجدانية .. ²¹

- رباط قومي قوي للشعوب: اللغة من أهم الروابط القومية لأفراد الأمة الواحدة، و للشعوب المتعددة المتفقة اللسان فهي تحقق الوحدة الاجتماعية التي يسعى إليها ابن خلدون في بناء الحضارة ، وكتاب العبر قائم على مفهوم العصبية التي من ركائزها اللغة .

- الدلالة على مدى تحضر الأمة و رقيها في أحوالها الاجتماعية: اللغة من الأسس الهامة في تنظيم الحياة الاجتماعية للأفراد .. و فيها تتمثل حضارة الأمة بمفهومها العام، فهي مقياس حضاري دقيق، به يعرف مدى ما وصلت إليه الأمة من تطور و ارتقاء، أو عكس ذلك و هذا ما بينه ابن خلدون في حديثه عن تطور اللغة في العصور الإسلامية الأولى حيث كانت الأمة راقية و نامية، و كانت لغتها هي الأخرى مثل ذلك، و لما دب الانحطاط إلى الأمة تأخرت اللغة و تشتت، و استحكمت اللهجات و تراجعت اللغة الفصيحة، فهو يرى أن كل تطور في الأحوال الاجتماعية يتبعه تطور في اللغة إن حسنا أو سيئا (النظرية الارتقائية). فاللغة تعبير عن الواقع الحضاري و طبقاته الاجتماعية.

- وسيلة للدعاية و التعامل: يعني ابن خلدون أن الملكة اللغوية أساس فن النثر و الشعر، فعليها يعتمد الخطباء و الشعراء و الكتاب في بث أفكارهم، و أحاسيسهم للغير، و بها يتم التواصل بين أفراد المجتمع في شتى نواحي الحياة.
- مظهر الإنسانية المتميز و رباط ما بين حاضرها و ماضيها: اللغة ظاهرة إنسانية فقد ميز الله الإنسان على الحيوان بالعقل و الرسائل قال تعالى: " و لقد كرمنا بني آدم ^{2 2} ، و من ميزة هذا التكريم اللغة، حيث تعتبر القوة الدافعة التي وجهت الشعوب و القبائل للتعارف فيما بينها، و فتحت الآفاق المعرفية للإنسانية، و التي لا تزال متجددة و متطورة ثم إن اللغة هي الصلة الوثيقة الرابطة بين حاضر الإنسانية و ماضيها.
- اللغة تسجيل للتراث العقلي ^{2 3}: فكل تراث فكري في نواحي العلم و المعرفة، و الفن و الأدب تسجله اللغات، و تحفظه شفهيًا أو كتابيًا ^{2 4} ، لتتوارثه الأجيال المتعاقبة، فاللغة مرآة للإنتاج العقلي البشري، و حافظة له.
- اللغة وسيلة للتعليم و تحصيل الثقافات و التزود بالكثير من القيم و المعايير في المجتمع : فاللغة ترجمان لما في الضمائر من المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة و التعليم وممارسة البحث في العلوم لتحصيل ملكاتها، و لذا " فإنه إذا سبقت العجمة إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم ^{2 5} ، فاللغة هي الوسيلة الأساسية التي يعتمد عليها في التربية، و التعليم، و التثقيف، و الاطلاع، و هي الوسيلة إلى تكييف السلوك، لأن اللغة وسيلة للتعليم و تحصيل الثقافات، تؤدي بذلك إلى تكييف سلوك الفرد و ضبطه و توجيهه، حتى يتناسب و أعراف المجتمع و تقاليده ^{2 6} ، " فاللغة [إذا] وعاء للثقافة ^{2 7} .
- إن اللغة – أي لغة – ظاهرة إنسانية، اجتماعية: كما يرى ابن خلدون، ذلك أنه ينطلق من النظرة الشمولية لعلم العمران البشري، فهو يصهر جميع الظواهر الاجتماعية في هذه النظرة، " فالإنسان يمارس اللغة – في الظروف الطبيعية – كما يمارس أي نشاط آخر، كالمشي و الأكل ^{2 8} .. دون ما تعقيد أو صعوبات،

فكل أطفال العالم، يستطيعون في سنوات قليلة أن يتقنوا لغة مجتمعهم بشكل تلقائي أو سلقى (من السليقة)، دون تعليم أو تعلم مقصود. "29، و اللغة العربية لا تند عن هذا النسق !.

إشارات ابن خلدون إلى بعض مواضيع علم الاجتماع اللغوي :

يعالج علم الاجتماع اللغوي مواضيع عديدة مثل التنشئة الاجتماعية ، الكفاية الاتصالية ، المعنى الاجتماعي ، التغير الاجتماعي و التغير اللغوي ، العلاقة بين الأبنية الاجتماعية و اللغوية ، تحليل المحادثات ...³⁰ و هذه المواضيع و غيرها نجد إشارات إليها في المقدمة ، لم تدرس بصفة دقيقة ، و لكن بالنظر إلى العصر الذي وضعت فيه يمكن القول أنها تجاوزت زمانها و أعطى أمثلة على ذلك :

- أشار ابن خلدون إلى التغير اللغوي و تأثير الظروف السياسية و الثقافية و الاقتصادية التي لعبت دورا في نشر الإسلام و اللغة العربية من المغرب إلى الصين و يقول ابن خلدون : " ثم فسدت هذه الملكة لمضر لمخالطتهم الأعاجم " ³¹ . و لا يكتفي بذكر الظاهرة بل يحاول تحليلها و بيانها فيقول : " و سبب فسادها أن الناشئ من الجيل ، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كصفات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، و يسمع كصفات العرب أيضا ، فاختلط عليه الأمر و أخذ من هذه و هذه ، فاستحدث ملكة و كانت ناقصة عن الأولى ، و هذا معنى فساد اللسان العربي " ³² . و هذا يدرسه اليوم علم اللغة الاجتماعي ، حيث يدرس الهجرات المتعاقبة و الحروب ، و نشأة المستعمرات .. كما يهتم أيضا بالتأثير المتبادل بين اللهجات و اللغات الوافدة في مقابل اللغة الأدبية الفصحى أو المعيارية. إن ابن خلدون بتطرقه للفساد اللغوي يقصد تغير الخصائص الداخلية (البنيوية) للغة ، و في هذا السياق يوجه نظره إلى تطور اللغة العربية و العاميات ، و غالبا ما يكون وراءها أسباب اقتصادية أو إدارية سياسية أو عسكرية ، و كلها عوامل اجتماعية .

- اكتساب اللغة حسب ابن خلدون : يركز ابن خلدون على الجانب الاجتماعي كثيرا يقول : " فالتكلم من العرب حينما كانت ملكة اللغة العربية موجودة بينهم ، يسمع كلام أهل جيله ، و أساليبهم في مخاطبتهم و كيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم و استعمالهم يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة و يصير كأحدهم ، هكذا تصيرت الألسن و اللغات من جيل إلى جيل و تعلمها العجم و الأطفال " ^{3 3} . و هذا الموضوع من أكبر مهام علم اللغة الاجتماعي ، فهو ينظر إليها من المنظور التاريخي الدياكروني ، أي دراسة العلاقة بين اللغة و المجتمع عبر محور الزمن .

- تجاور المجتمعات و التأثير اللغوي : إن الاحتكاك الاجتماعي مدعاة إلى التأثير و التأثير في الأداء الكلامي ، و تحليل المحادثات اجتذب اهتمام اللغويين و علماء الاجتماع في العصر الحديث ^{3 4} و قديما أثناء جمع اللغة أقام اللغويون دراسات مقارنة بين القبائل ، ويشير ابن خلدون في المقدمة إلى التأثير المتبادل بين القبائل العربية فيما بينها ، وبينها و بين الشعوب المجاورة في الجانب اللغوي . و هذا في قوله : " كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية و أصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف و هذيل و خزاعة ، وبين كنانة و غطفان ، وبين أسد و بني تميم ، و أما من بعد عنهم من ربيعة و لخم و جذام و غسان و إياد وقضاعة و عرب اليمن المجاورين لأمم الفرس و الروم و الحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة ، بمخالطتهم الأعاجم ، و على نسبة قربهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة و الفساد عند أهل الصناعة العربية " ^{3 5}

- اهتمامه باللهجات : يهتم علم الاجتماع اللغوي باللهجات كثيرا ، و قد أشار ابن خلدون في العديد من النصوص في أواخر المقدمة إلى هذا الموضوع ، و يمكن

أن نمثل بما لاحظته في النطق بالقاف . يقول : " و مما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد ، حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف ، فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار ، كما هو مذكور في كتب العربية ، أنه من أقصى اللسان و ما فوقه من الحنك الأعلى . وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف .. بل يحيئون بها متوسطة بين الكاف و القاف ، وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق ، حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم و الأجيال و مختصا بهم لا يشاركون فيها غيرهم ، حتى أن من يريد التعرب و الانتساب إلى الجيل و الدخول فيما يحاكيهم في النطق بها . و عندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية و الحضري بالنطق بهذه القاف " 36 ثم يأتي على تفسير أصل هذه القاف تاريخيا .

- التغير اللغوي : يعقد ابن خلدون فصلا بعنوان " في أن لغة أهل الحضرة و الأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر " و في هذا الفصل يبين التغير الاجتماعي المؤثر في اللغة ، وهو ما تقوم عليه الدراسة الاجتماعية اللغوية في العصر الحديث .

- الذوق اللغوي و تعلم اللغة : يعقد ابن خلدون فصلا بعنوان " في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان و تحقيق معناه و بيان أنها لا تحصل غالبا للمستعربين من العجم " و في هذا الفصل بين كيفية حصول الملكة للعربي و لغيره .

- المنهج : سلك ابن خلدون في دراسة اللغة العربية في ظل علم العمران البشري المناهج الثلاثة في دراسة اللغة (التاريخي و الوصفي و المقارن) ، و حاول من خلال المنهج التاريخي تتبع انتقال اللغة العربية من الجزيرة إلى الأمصار المفتوحة ، واصفا التطورات التي طرأت عليها ، و الظروف التي ساعدت على نشأة العاميات ، و نشأة علوم اللغة بصفة عامة .. و لا غرابة في ذلك ، فنحن نعلم أن موضوع المقدمة هو بإيجاز ، تفسير أسباب نشأة و تطور و انحطاط و زوال الحضارة ، فهي

خلاصة لعلم العمران البشري، و تاريخ للأحقاب التاريخية (النظرية) و اللسان أساس الحضارات، فأفكار ابن خلدون اللغوية - هي كما أظن - جزء من الواقع التاريخي الحضاري الذي يريد أن ينقله إلينا، أضف إلى ذلك أن المقدمة هي عبارة عن تمهيد و خلاصة قوانين يلتزمها في كتابه العبر، كتابه التاريخي. و نعلم أن ابن خلدون في المقدمة هدف إلى الكشف عن القوانين التي يمكن أن نستخدمها في تفسير الماضي، و التنبؤ بالمستقبل، و لهذا وجدنا كيف أن ابن خلدون يستنكر ما كان يذهب إليه المؤرخون قبله و يعرض بهم^{7 3} و أكد في الوقت ذاته رغبته في أن يفسر تلك الأحداث و يعللها بالرجوع إلى الأسباب الحقيقية الكامنة في ظروف البيئة التي تعيش فيها الجماعة الإنسانية ..

مواضيع كثيرة عاجلها ابن خلدون في عبارات موجزة جدا لها علاقة مباشرة بعلم اللغة الاجتماعي و علم و الاجتماع اللغوي . لا أقول أن هذه المواضيع هي عينها ما يدرس حاليا ، ولكن تحليلها يبين قيمتها العلمية مقارنة بالعصر الذي وجدت فيه ، فالمقال دعوة إلى إعادة قراءة هذا التراث في ظل النظريات الحديثة .

هوامش البحث:

¹ تاريخ ابن خلدون المسمى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٩٩٢ م) ج : ١ ، ص : ٧ . ج : ١ ، ص : ٧ .

² م . ن ، ص : ٦٧ .

³ عبد الرحمان ابن خلدون : - مقدمة ابن خلدون " الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون " ، تح : ضياء الدين رجب شهاب الدين (الشارقة : دار الفتح ، ط : ١ ، ١٩٩٥ م) . ص : ٤٤٧ المقدمة ، ص : ٣٧ . العبر ، ج 1 ، ص : ٣٧ .

⁴ عبد الغني مغربي : الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون ، ترجمة : محمد الشريف بن دالي حسن (الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، د . ط ، ١٩٨٦ م) ، ص : ٤٨ .

⁵ ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٣٨ .

- 6 م.ن.
- 7 ابن خلدون: العبر: ج: ١، ص: ٤١.
- 8 الدر المصون ص: ٤٨.
- 9 للاستزادة في موضوع علم الاجتماع الخلدوني بنظر: إدريس خضير: التفكير الاجتماعي الخلدوني، عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون ...
- 10 إدريس خضير: التفكير الاجتماعي الخلدوني (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د. ط ، ١٩٨٣ م) . ص: ٧٤ بتصرف.
- 11 ينظر: محمود طه الحاجري (د): ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د. ت، د. ط) ..
- 12 ينظر: عزيز العظمة: ابن خلدون و تاريخه، ترجمة: عبد الكريم ناصيف. (بيروت، دار الطليعة، ط: ١، ١٩٧١ م .
- 13 ينظر: ضياء الدين رجب شهاب الدين: الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون، ص: ٦٦ و فيها وازن الكاتب بين المنهجين.
- 14 محمد حسن عبد العزيز، علم اللغة الاجتماعي (القاهرة: مكتبة الآداب) ص: 10
- 15 م.ن. ص: 10
- 16 ينظر هذه الأسماء في: محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام (لبنان: بيروت، عالم الكتب ٢٠٠٢ - ط: ١) ص: ٦
- 17 عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي، ص " ٢٠١ .
- 18 ان مفهوم النظرية العام هو: نسق من المعرفة المنسقة و تفسير للجوانب المختلفة للواقع " فالنظرية تدل على معنيين: " إذ هي تدل على قضية أو مجموعة قضايا يراد بها وصف الواقع وتفسيره، و الوصف وحده لا يعتبر نظرية ملم يتبع بتفسير يضمن الى حد ما الابعاد العامة للأهداف المقصودة ". ومعيار صدق النظرية هو الممارسة العملية، فالنظر غالبا هو الفكر المجرد في مقابل التطبيق. ينظر: محمد الأمين بلغيث، النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب و الأندلس (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٩ م) ص: ١١. وإن إطلاقنا على المعارف اللغوية الخلدونية اسم النظرية، ليس مبالغة، وإنما هي حقيقة علمية، و قد أفردت لهذه النظرية بحثا مستقلا في رسالة الماجستير من خلال مقارنة الفكر اللغوي الخلدوني بالفكر اللغوي العربي والغربي الحديثان، وكذلك إخضاع هذا الفكر للممارسة العلمية

¹⁹ هناك من الباحثين من يرد على اكتشاف ابن خلدون لعلم العمران ناتج عن دراساته اللغوية و البلاغية . ينظر : محمد الصغير بناني ، البلاغة و العمران عند ابن خلدون ، (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٦ م) - مستقاة من كلام المؤلف - رحمه الله-مباشرة من خلال لقاءات معه ، ينظر : المدارس اللسانية في التراث العربي و اللسانيات الحديثة (الجزائر : دار الحكمة ، د.ت، د.ط) ص: ٥٠ . وما بعدها.

²⁰ ابن خلدون، الدر المصون، ص: ٧٤٨.

²¹ ينظر: محمد عيد (د) : الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة : عالم الكتب ، د .

ط ، ١٩٧١ م) ، ص: ١٠٨ . بتصرف.

²² الإسراء، الآية: ٧٠.

²³ علي أحمد مذكور، تدريس فنون اللغة العربية، (القاهرة : دار الفكر العربي ، د . ط ،

١٩٩٧ م) . ينظر: اللغة وسيلة لحفظ التراث الثقافي، ص: ٣٦.

²⁴ و كذلك نصبة أو حال على حد تعبير الجاحظ في البيان و التبيين.

²⁵ ابن خلدون، المقدمة، ص: ٧٤٨.

²⁶ ينظر: محمد صالح سمك : فن التدريس للتربية اللغوية وانطباعاتها المسلكية وأنماطها العلمية

(القاهرة : دار الفكر العربي ، ط . ج ، ١٩٩٨ م) .، ص: ٢٣.

²⁷ محمد عبد الواحد حجازي، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، (الإسكندرية: دار الوفاء،

١٩٩٧ م)، ص: ١٥٢.

²⁸ يرى بعض العلماء أن تعلم اللغة و الكلام يختلف عن المشي، هذا الأخير يعتبر نتيجة

أساسية للتطور و النضج البيولوجي، و يكون متطابقا عند جميع البشر، بينما اللغة تعتبر ظاهرة

ثقافية و حضارية و قومية متعلمة، فهي ترتبط بالوسط الذي يعيش فيه الطفل. فالطفل قد يوجد

في وسط متعدد اللغات، و لكن، اللغة التي يكتسبها هي التي يتدرب عليها و يتعلمها .. و هذا

أساس منطلق ابن خلدون ي اكتساب الملكة اللغوية. ينظر: د. فيصل محمد خير الزراد، اللغة و

اضطرابات النطق و الكلام، ص: ٩.

²⁹ مبروك سعيد عبد الوارث : اللسان العربي - الهوية . الأزمة . المخرج (المنصورة : دار

النشر للجامعات المصرية ، مكتبة الوفاء ، د . ت ، د . ط) . ص: ١٩.

³⁰ محمد حسن عبد العزيز ، علم اللغة الاجتماعي (القاهرة : مكتبة الآداب) ص: 30

³¹ العبر ، ج 1 ، ص 643

³² م . ن .

³³ المرجع نفسه .

³⁴ محمد حسن عبد العزيز ، علم اللغة الاجتماعي ص: 30

³⁵ المقدمة : ص 444

³⁶ المرجع نفسه .

³⁷ ابن خلدون، المقدمة: ص: ٦١.